

المرأة المسلمة 12 يوليو، 2003

لفضيلة الشيخ سيد شريف
إعداد: عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

لقد رفع الإسلام من شأن المرأة، فسواها من حيث إنسانيتها و بشريتها بالرجل، و أحاطها بأداب تحفظ عليها عفتها، و تصون شرفها، و ترفع كرامتها، و أباح لها من الأعمال ما يناسب طبيعتها، و ما يتفق مع أصل خلقتها، و ما يحفظ كمالها و طهارتها، و ليس في الإسلام ما يمنع أن تكون المرأة عاملة محترفة لأي حرفة تتكسب منها الرزق الحلال، ما دامت الضرورة تدعو إلى ذلك، و ذلك في أعمال تصون شرفها، و تحفظ على كرامتها، و تلتزم بمبادئ السمو الأخلاقي، و الطهارة، و العفة، و الصفاء القلبي.

و بفضل تشجيع الإسلام استمرت المرأة تتدرج نحو الكمال في رزانة و جذر و عفة، تحمل العبء المنوط بها في أمانة و إخلاص بعد أن مرت بها حقب طويلة لا تملك لنفسها نفعا، و لا تدفع عنها ضرا و لمزيد من اعتراف الإسلام بوجود المرأة و اشتراكها بنصيب موفور في الأعمال الإنسانية التي تتفق و طبيعتها و تلائم ما فطرها الله عليه من عطف و رحمة، و بر و شفقة و عناية و رعاية.

قال الكاتب - رحمه الله -:

اعترف الإسلام بوجود المرأة بعد أن مرت بها حقب طويلة لا تعرف لها حقوق و لا تحفظ لها أقدار، و قد نحيت عن المجتمع، و أبعدت عن معترك الحياة، و عوملت معاملة فيها مهانة و استخفاف، و زراية و احتقار، ينظرون إليها كما ينظرون إلى المتاع، حرية مسلوقة، و كرامة مهذرة، تؤمر فتطيع، لا تملك لنفسها نفعا و لا تدفع عنها ضرا، و لا تعرف لما ينزل بها من سبب و كان أول اعتراف رسمي بها في بيعة العقبة الثانية، إذ شارك الرجال في البيعة امرأتان تكفلنا بما تكفل به الرجال أمام رسول الله، ثم قفلوا عائدين إلي يثرب، كل ينشر دعوته بين أبناء جنسه، و أخذت المرأة بعد ذلك تساهم في ميادين العمل المتنوعة التي بدت إذ ذاك حرة فسيحة، تدعو إلي تضافر القوي، و استغلال الأفهام و الانتفاع بنتاج العقول، و برزت نتيجة هذه السياسة إلي مجالس العلم، ترشفت من مناهله و تنهل من سلسله، ثم تعمل جاهدة على نشر ما تعلمت بين النساء تبصرهن بشئون الدين و تقرأهن كتاب الله و سنة رسوله، و تغرس فيهن حميد الخلال و رفيع الصفات، و تحبب إليهن البحث و التأمل فيما يحيط بهن من أمور حتى نبغ منهن عدد يشار إليه بالبنان، تعمق في المعرفة، و عني بالتفكير، و اتسع افقه في القياس و الاستنباط مع ذاكرة و اعية و قريحة ناقدة، تنقل ما سمعت عن رسول الله، أمينة في النقل حريصة على الوفاء بما حفظت.

و هاهي ذي السيدة عائشة تعتبر مصدرا من مصادر السنة، و مرجعا من مراجع الفتيا فيما يعرض للأمة من شئون، تعقد فهمها، و خفي حلها، و بادلت نوي الرأي فيها، و قد قال عطاء بن رباح بعد أن تبين فضلها في خدمة الدين و نشر تعاليمه: كانت عائشة افقه الناس، و اعلم الناس، و أحسنهن رأيا في العامة. و يقول عروة: ما رأيت أحدا اعلم بفقها و لا بطب و لا بشعر من عائشة.

و اشترك بنات السابقين الأولين بقيادة السيدة عائشة في تلك النهضة المباركة التي أخذت تنمو شيئا فشيئا حتى سايرت الدعوة الإسلامية في الذبوع و الانتشار، يعضدها الرسول و يتعهدها بعده الخلفاء و الولاة. و بعد فترة و جيزة انتظمت كثرة من النساء، فكان منهن الفقيهة الشاعرة، و الخطيبة البارعة، و من خاضت الميادين لحفز الهمم، و شحذ العزائم، و تمريض الجرحى و نقل القتلى، و من اشتركت اشتراكا فعليا في المعارك، فضربت بالسيف و رمت بالسهم، تبارز الأبطال. و تقاوم

الأجناد غير وجلة ولا هيابة ، تحمل قلبا كبيرا ونفسا مؤمنة بان الحياة جهاد في سبيل العقيدة وجلاد عن الحق ، وزود عن الرأي. وبعد عن مفاتن الحياة .

وقد ضربت السيدة أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنه - أحسن المثل للأُم الصالحة التي تنشيء للأمة جيلا قويا ، يأبى الضيم ، ويلبى نداء الوطن ، ويسترخص البذل، ويستتهين بالتضحية دفاعا عن رأيهِ وبلده إذ تقول لابنها عبد الله بن الزبير في لهجة حازمة حينما قال لها يا أماه خذلني الناس حتى أهلي وولدي ، ولم يبق معي إلا اليسير ، ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة وقومي يعطونني ما أردت من الدنيا ، قالت : أنت اعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك علي حق واليه تدعو فامضي له . فقد قتل عليه أصحابك . ولا تمكن من رقيتك غلمان بني أمية تلعب بها . وإن كنت إنما أردت الدنيا فيئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن معك ، وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت . فهذا ليس فعل الأحرار من أهل الدين ، فقال : يا أماه أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني قالت : يا بني إن الشاه لا تتألم بالسُلخ . فامض علي بصيرتك واستعن بالله . فقبل رأسها وانصرف .

وتلك سيدة أخرى تقول ما تعتقد . غير عابئة بما يثره قولها من آثار . ما دامت قد أرضت ربها وبرئت ذمتها وأداعت رأيها . تتناقله الألسن وتنتفح له الأسماع وتحدث به الربان وهي ام الخير بنت الحريش بن سراقه ، قالت من خطبة طويلة لها فإلي أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبي سقيه صلي والناس مشركون وأطاع والناس كارهون ، قتل الله به أهل خيبر وفرق به جمع أهوائهم ، فقال معاوية يا أم الخير ما أردت بهذا إلا قتلي ولو قتلتك ما حرجت في ذلك ، قالت والله ما يسوئوني أن يجري قتلي علي يد من يسعدني الله بشقائه ، وقد أعجب معاوية بصراحتها وجرأتها وأمر لها بجائزة وقد حمد عمر - رضي الله عنه - لامرأة من قريش صراحتها ونزل عند رأيها حينما وقف ينهي عن المغالاة في المهور علي أربعمئة درهم فاعترضت بقولها أما سمعت ما أنزل الله (واتيم إحداهن قنطارا) فقال اللهم غفرا كل الناس افقه منك يا عمر وإن هذا النهج الواضح في التربية الإسلامية للمرأة لخلق بان يخرج رجالا يدينون بالشجاعة والإقدام ولا يعرفون الحياة الهازلة ولا العيش الناعم ولا النظر الساخر ولا الترف الآثم ، وإنما تراهم اذا الشر أبدى ناجزيه لهم طاروا إليه زرفات ووحदानا .

وفي ميادين الغزو وساحات الوغى سجل التاريخ عددا منهم حضر المعامع وقام بنصيب موفور في الأعمال الإنسانية التي تتفق وطبيعة المرأة . وتلائم ما فطرها الله عليه من عطف ورحمة وبر وشفقة وعناية ورعاية تأسو الجراح وتخفف الآلام وتيسر الصعاب ، وحسبي أن اذكر علي سبيل المثال اميمة بنت قيس والغفارية فقد اشتهرت برواية الحديث وكانت مع ذلك تحضر الوقائع وتدأوي الجرحى وتدور بين القتلى وتحث الناس علي ذلك ، فقالت يوما لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في نسوة من غفار إنا نريد أن نخرج معك فندأوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا ، فقال الرسول : علي بركة الله وكان ذاهبا إلي خيبر ، ومنهم خزانة ابنة خالد بن جعفر كانت على جانب عظيم من الفروسية وقد حضرت فتوح العراق مع سعد بن أبي وقاص ، وخاضت المعارك والمعامع وحضرت فتوح الحرة حينما استشهد خمسمائة وثلاثون فارسا وحمل بعضهم السيف والتحم بالفرسان وظهر من البراعة والمهارة ما كان موضع الإعجاب والتقدير أمثال خولة بنت الازور خرجت مع أخيها إلي الشام في خلافة أبي بكر الصديق ، وكانت تفوق الرجال بالفروسية والبسالة ولها وقائع مشهورة ، وقد عملت في جيش خالد بن الوليد وكانت ملثمة الوجه لا يظهر منه إلا الحدق وكأنها شعلة نار تجول يمينا وشمالا تعمل في جيش الروم قتلا وأسرا حتى تخضبت ثيابها بالدماء ، وقد أعجب بها خالد أيما إعجاب .

واستمرت المرأة بفضل تشجيع الإسلام تتدرج نحو الكمال في رزانة وحذر وعفة وتصون تحمل العبء المنوط بها في أمانة وإخلاص بعيدا عن ضجيج الأندية العابثة والمجتمعات اللاهية متمسكة بحياة الجد والعمل ، تقطع جل وقتها في تلقين النشء تعاليم الحرية و الكرامة . و مباديء الوفاء

والقناعة وبذلك توفر للأمة الإسلامية رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه. بروا بدينهم و وطنهم ،
فكانوا قادة الأمم ، وسادة الشعوب ، ساسوهم بالحكمة والموعظة الحسنة.